متى ١٥، ٢١-٢٨

الأحد السابع عشر من متّى

إلحادُ الأديان وإيمان الإلحاد

"ليس حسناً أن يرمى خبز البنين للكلاب"

إنَّ هذه العبارة القاسية التي تبدو كـــ"عثرة"، هي بالذات مفتاحُنا إلى النصّ الإنجيلـــيّ، حـــين نفهمها. وأهم ما فيها كلمتان: "الخبز" و"الكلاب".

تقع حادثة لقاء يسوع مع المرأة الوثنيّة الكنعانيّة بين حادثتَي تكثير الخبز والسمك؛ الأولى لإشباع خمسة آلاف، والثانية لأربعة الآلاف. موقف اليهود من حادثة تكثير الخبز كان معروفاً. يوضح الإنجيليّ يوحنا ذلك، بأنَّ يسوع قال للجموع التي تبعته بعد هذه العجيبة: "أنتم تطلبونني، ليس لأنّكم رأيـــتم آياتٍ. بل لأنّكم أكلتم من الخبز فشبعتم" (يوحنا ٦، ٢٦). إنَّ يسوع يستخدم مع الكنعانيّة صـــورة الخبز، أمام التلاميذ والجموع، ليشير إلى هذا الموقف.

ويتلخّص موقف اليهود، الذي امتعض منه يسوع آنذاك، بأنَّهم تبعوا يسوع منتظرين منه غايات لا يحبّها الله. بعد حادثة تكثير الخبز طمع اليهود بيسوع. كانوا يظنّون أنَّ على الله أن يكون خادِماً لهم كي يستحق أن يكون إلَهَهم. اليهود يتّبعون يسوع بشروط. إنَّ موقفهم يتلخّص بـــأنَّهم يقبلـــون أن يعبدوه إذا أثبت لهم أنّه يطيع رغباتهم. على الله أن يكون كما نريده نحن. الله من هذا الموقف هـــو في موضع العبد ولو دُعيَ إلهاً. نظرة دينيّة فاسدة كهذه تحدِّد لله صفاتِ صلاحِهِ ليستحق أن يكون "الله". موقف اليهود – البنين – هذا يضع الله في قفص مليءٍ بالصفات إذا ما خرج منه لا يعود إلهاً. وشـــباك هذا القفص هو نسيج حاجاتنا ورغباتنا. هذه هي الوثنيّة بالذات. إله كهذا هو صنم جديـــد. الوثنيّـــة بالتحديد هي عبادة "إله ما" نحنُ حدَّدناه، أو خلقناه؛ أو عبادة الله ضمن أُطر نحن نحدِّدها وعليه هو أن يطيعها. الله في الوثنيّة خادم للحاجات التي نحدِّدها نحن له كمهمات وفرائض. باستطاعتنا مثلاً أن نلقِّنه الوصايا التي يمكننا أن نقبلها منه ويمكنه أن يوصينا بها. بالنهاية الله هو المطيع ونحن الآمرون.

أحياناً ينقلب الدين إلى قفصٍ نسجن فيه صنماً لله نرسمه نحن. هذا هو إلحاد الأديان. وفي هـذا يتلخّص موقف اليهود أمام صورة الخبز التي أشار إليها الربّ يسوع. إله هؤلاء اليهود هو صنم يهوديّ وليس يسوع المخلِّص. هذا الموقف المتعالي على الله هو وثنيّة مُبَطَّنة. في هكذا موقف يصبح الإنسان السيّد والعارف والمحقّ، والله هو المُمتَحَن؛ إن أطاع حدودنا، نصَّبناه صنماً إلهيًّا، وإن رفض، رفعناه مصلوباً. لقد صَلَبتْ يسوع وثنيّة اليهود الخفية.

هذه الوثنيّة هي سرطان الدين دهوراً ودهوراً. وما سقط به هؤلاء أيّام يسوع، نتعرض له نحن أيضاً كلّ يوم. فغالباً ما ننتظر من الله أن يبرهن لنا عن قدرته على استلام هذا المنصب الرفيع من سيادتنا البشريّة. مرّات عديدة وفي مختلف مواقف حياتنا، نعامل الله كعبدٍ، فنحن مَنْ يرفعه إلى ألوهيته أو يرميه إلى حضيض الإلحاد. الكتاب المُقدَّس هو مرّات ومرّات عرضةً لأحكامنا وانتقادنا. المسيح مرّات عديدة هو عرضة لاتهاماتنا أو تساؤلاتنا. وفي أحسن الأحوال، عليه أن يكون خاضعاً "لأبنائه" وأن يؤهّل ذاته، بخدماته لنا، إلى منصبه السامي.

أمَّا تلك الكلمة القاسية "الكلاب"، التي ترد في النصّ، فقد استخدمها يسوع ليشير إلى موقع الكنعانيّة في نظر اليهود الذين كانوا يطلقون هذا النعت القاسي على بني كنعان. لم يكن الكنعانيّون يهوداً، بل وثنيّين. وكانوا في أوائل الشهور وفي أعيادهم يستبيحون في عباداتهم ما لا يستبيحه ضميرهم في الأيّام العاديّة. لقد كانت عباداتُهم ممارساتٍ سرّيةً ودمويّة وعابثة. فكانوا يُقَدِّمون للأوثان ضحايا وقرابين من أولادهم الذين يولدون من زنى عبادات الأعياد السابقة. فرأى اليهود في هذه التصرّفات عيباً لا يقترفه حتّى الحيوانات كالكلاب. كانت اليهوديّة دِين البنين، وكانت تربّي بوصاياها شعباً مُختاراً. أمَّا العبادات الوثنيّة فكانت ممارسات لا إنسانيّة.

عندما اقتربت هذه المرأة، وهي الأكثر عِلماً بممارساتها وتضحياتِها لأولادها أمام الأوثان، قادتها كلمة يسوع إلى التوبة. "نعم"، أجابت: "والكلاب تأكل من الفتات المتساقط من موائد أسيادها". فيا لعِظَم الاعتراف، ويا لقوة التوبة.

بينما كان اليهود (بعضهم) يتقدّمون إلى يسوع بعد العجائب "كمستغلّين" وكانوا يعاملونه كمشارطين، فألحدوا في دينهم حين جعلوا الله تحت الامتحان والفروض؛ تقدّمت الوثنيّة التائبة إلى

يسوع كمخلِّص، وطلبت منه الرحمة. لقد كان موقف هذه الكنعانيّة موقف العبد أمام سيِّده: "ارحمني يا ابن داؤود". موقف العبد يُوجَزُ بكلمةٍ واحدة: "ارحمني"، بينما سيادة الوثنيّة يُعبَّر عنها بشروط الاعتراف.

الله في الإيمان الحقيقيّ سيِّد الرحمة، وفي الوثنيّة هو عبد الطلبات. في الإيمان نرتمي أمام قدميّ الله باستنجاد، أمَّا في الوثنيّة فنحن نستعبد الله بالشروط والحاجات. الإنسان من منظور الإيمان هو تائب أمام الحبّ والعطف الإلهيّ. أمَّا مشارطة الأديان فهي وثنيّة. العبادة تعني بكلمة واحدة الطاعة. أما الطلبات المشروطة فهي سيادة.

فلا نستعبِدَنَّ الله في عبادتنا. ولا نكن وثنيّين في أدياننا. التوبة، والقلب المجروح، هما طريقنا الوحيدة إلى الله المحب البشر. الله يُعبَد بالروح والحقّ. الله لا يقيس هويةً دينيّة ولا انتساباً إلحادياً. الربّ يقيس القلب المُنكَسِر، والمُتخشّع، والمتواضِع؛ والذبيحة له روحٌ منسحق. من لا ينسحق أمام الله فإنَّه يعبد وثناً. إنَّ إيمان هذه الوثنيّة المبني على التوبة انتزع من يسوع ما لم يستطع دين يهود الناصرة أن يربحه: "ولم يُجْرِ هناك إلاَّ معجزات قليلة، بسبب عدم إيمانهم به" (متى ١٣، ٥٨). لقد صرخ يسوع في بلده الناصرة: "ليس لنبيّ كرامةٌ في وطنه" (متى ١٣، ٥٦)؛ وقال للكنعانيّة: "أيّتها المرأة، عظيم إيمانك".

البنوّة لله هي القلب التائب. نحن لا نعبد ربّاً بحفظ الوصايا وحسب. إنَّ إلهنا هو الله الذي يعرف حاجاتنا قبل أن نطلبها. فلنطلبْ ملكوت الله وبرِّه، والباقي كلّه يُزاد لنا. حين نعبد الحبّ الإلهيّ نصير "بنين"، وحين نشترط على الحبّ الإلهيّ نصبح "وثنيّين". علينا أن نطلب الرحمة من الله "كالأطفال". نحن بحاجة إلى رحمة الله، أمَّا اللهُ فليس بحاجةٍ إلى برهان على عهده وحبِّه. المسيح يطلب هؤلاء الساجدين له بالروح والحقّ، الذين يتقدّمون إليه مؤمنين بعدم استحقاقِهم. الربّ يسوع جاء مُخلِّصاً لنا، ونحن نتقدّم إليه من انسحاق التوبة. لم يأتِ المسيح لا معلّماً ولا رئيساً لشيعةٍ ما. التوبة هي ملكوت البنين. بين الله والإنسان ليس هناك إلاَّ "التوبة". بالتوبة فقط نقتني البنوّة. شعور التبرير اليهوديّ هو إلحاد الدهور الذي يشترط على الله بنودَ عهدِ ألوهيّته.

ليس حسناً أن يُرمى الحبّ الإلهيّ، وهو خبز البنين السائلين الرحمةَ بالتوبة، إلى وثنيّة الكلاب التي تجربّ الله بالشروط. من اقتنَ التوبة طريقاً لا بدّ أن يسمع يسوع قائلاً: يا بُنيَّ عظيمٌ هو إيمانك.

آمين